

أ.د. رابع طبجون المدرسة العليا للأساتذة -قسنطينة -الجزائر

جدل الأنا والآخر في النصوص الجزائرية المهاجرة "مالك حداد" أنموذجا

مالك حداد (1927- 1987) هو أحد فرسان الكلمة الصادقة في حقل الإبداع الجزائري الحديث، أطلّ علينا في مرحلة تشكل الوعي الثقافي والأدبي والسياسي في مطلع القرن الماضي بمعطياته المتعددة والمتباينة والمتناقضة، وهو صاحب إبداعات شعرية وروائية ونقدية متنوعة، نذكر منها(1): الشقاء في خطر Le Malheur en danger (شعر 1956)، الانطباع الأخير La Dernière impression (رواية 1958)، سأهبك غزالة Je t'offrirai une gazelle (رواية 1959)، التلميذ والدرس L'Élève et la leçon (رواية 1960)، رصيف الأزهار لا يجيب Le Quai aux Fleurs ne répond plus (رواية 1961)، أسمع وسأناديك Écoute et je t'appelle (شعر 1961)، الأصفار تدور في الفراغ Les Zéros tournent en rond (دراسة 1961).

تبلور النضج الفكري والنفسي لمالك حداد أثناء الحشد النفسي الثوري الوطني، الذي كانت الثورة الجزائرية تعبئ به الجماهير بكل معاني البطولة والتضحية والاستشهاد، والمقاومة الشرسة في مواجهة الاحتلال، والاستعمار وكل آلات الاضطهاد والتدمير والاستيطان، وفنون القتل والتعذيب.

لقد راهنت فرنسا آنذاك على نشر لغتها، ومحاربة اللغة العربية، وكثّفت الحركة الاستيطانية وفعلتها ثقافيا واجتماعيا بين السُّكان. "والواقع أن الاستعمار حارب اللغة العربية والثقافة العربية حربا لا هوادة فيها، ولما كانت اللغة هي وعاء الثقافة العربية، ركّز الاحتلال حربه على اللغة العربية وأبعدها من الإدارة وطاردها من معاهد التعليم، وانفردت اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية بالميدان حتى أن بعض الجزائريين في مرحلة الاستعمار أصبحوا يخشون على لهجة الحديث العامية أن تندثر

في البلاد ، لكثرة ما شابها من كلمات فرنسية دخيلة تسربت إلى ألسنة الجزائريين" (2)

أراد الاستعمار الفرنسي أن يجعل "المركزية الأوروبية" بمعنى نسق القيم الغربي هي المرجعية القيمية، بما تتضمنه من معايير عن التخلف والتقدم. وحاول ذلك في تجاهلته لأصالة الثقافات الوطنية في الدول المستعمرة، بل في مناخ ثقافي عنصري يتضمن ازدراءً واضحاً للثقافات الأخرى.

وقد عبر أغلب الباحثين بوضوح وصراحة عن السياسة الاستعمارية تجاه الجزائر، بأن " الاستعمار لم يستهدف استيطان الأرض، واغتصاب خيراتها فقط، ولكنه عمد كذلك إلى فصل الشعب الجزائري عن جذوره، وقطع أواصره العربية الإسلامية، وذلك بالقضاء التدريجي المتعمد على اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ومصادرة الحريات العامة، والاستعاضة عنها جميعاً بنشر ثقافته ولغته، وصحافته الناطقة بأرائه، ومن جراء ما لحق هذه الثقافة من تعسف وكبت وإرهاب." (3)

كل ذلك أدى إلى الاضطهاد والمصادرة والتعليم الإجباري القسري الذي قاد إلى الازدواج اللغوي، وقد ركزت السياسة الاستعمارية معاول هدمها خاصة على المؤسسات الدينية، وعلى رأسها المساجد والمدارس والزوايا، لما لهذه المؤسسات من دور في الحفاظ على مقومات الشعب الجزائري، و انتمائه الحضاري العربي الإسلامي.

ففي الجزائر كانت سياسة فرنسا لا تقتصر على الميدان الفكري الجامعي والتعليمي فقط، وإنما تعدته إلى مجال الحاجات العادية، أي في الشارع والسوق والمقهى وكل المحيط... إلخ " وكان لهذه السياسة الماكرة أثرها السلبي في انحسار دائرة العلم والمعرفة في أوساط الأهالي، وتراجع درجة التعليم بينهم، وانتشار الجهل والجمود في صفوفهم، فعرفت الحياة الثقافية والتعليمية في الجزائر من جراء ذلك تراجعاً مذهلاً وضعفاً ملحوظاً" (4).

في ظل هذه الظروف نشأ مالك حداد ومع بعض الخصوصيات التي رافقت طول حياته، فمن (رصيف الأزهار لا يجيب) إلى (سأهبك غزالة) إلى (الشقاء في

خطر) ظل حداد يحمل مأساته المزدوجة، وربما بحسّ يختلف عن الآخرين، هذا الهم المزدوج (الاستعمار واللغة) هو الذي حدّد مسار كل أعماله.

فمالك حداد يرفض تسمية (الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية) وإنما يسميه (الأدب الفرنسي ذو التعبير الجزائري) وهو "تعبير لم يستعمله قبله ولا بعده أحد، ويلخص وجهة نظر في غاية من الدقة والإيجاز فهو يؤكد من جهة على "الروح الجزائرية التي كُتبت بها، وتجلت من خلال المضمون الذي عبرت عنه، ولكنه يعده فرنسيا بالنظر إلى وسيلة التعبير ألا وهي اللغة التي كُتبت بها" (5).

ورغم مأساة اللغة ظل هذا الأديب نقياً، يعبر عن هموم وطنية وقومية وإنسانية، برؤية تقدمية في شكلها العام، بعيدة عن كل روح شوفينية، الأمر الذي ساعده على عدم السقوط في التعميم والغموض، مثل بعض الكُتّاب الجزائريين، الذين أفرزتهم الثقافة الاستعمارية، حيث "تشكل رواياته قصائد تأثيرية، تظهر فيها من حين لآخر تصريحات وطنية وحماسية، وهو ينظر إلى الحدث كشاعر بقلبه قبل فكره" (6).

يكسر حياته للكاتب عن الثورة، والتغني ببطولة الشعب، وبمستقبل الجزائر المتحررة الزاهرة. "ويرد على (روجي كوريل) الذي وصف الجزائر بأنها (مُخدر أسود يقتل ويحيي ...) وأنه يتحتم (على من ربطوا مصيرهم بها أن يفضوا الطرف عن "خيانتها" لهم مع غيرهم، كما يتفاضى العشاق الأذكياء على خيانة معشوقة على قدر كبير من الجمال والبلادة، وقد استفز هذا القول مالك حداد فرد عليه قائلاً: إن الجزائر ليست عشيقتنا المشتركة، إنها أمانة ولا يمكن أن نرتكب زنا المحارم في أسرتنا" (7)

إنه يعيش معها الماضي والمستقبل، "وكلما شعر بمأساة الانفصال بين عوالم الرؤى والواقع الراكد المبعثر، يؤوب إلى رحيل جديد لعل اللغة تثمر فعلاً فتضى طريقاً أو تزيح حجراً" (8)، وهذا ما يبحث عنه مالك حداد "حين يُسألها ويراجعها حتى يحطم هالة الذات المصونة التي لا تمس، والتي تدرت بها عبر العصور" (9) يقول:

في كلّ الدُروب التي تقود إلى النهار..

أفتش أبدا عن اسمي بين شواهد القبور..

عجبا ! كيف يفتح الماضي المظلم أبوابا لغد جميل؟

إنه يحارب بأغانيه التي يجب أن تقتل الليل من داخل ذاته المحترقة، ومن مسارب روحه لإيصال صوت شعبه وصرخة وطنه المستباح إلى كل أصقاع الدنيا، ومن عقر دار المحتل وبأدواته اللغوية، وأساليبه التعبيرية. وعلى رأي فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844 - 1900) "ما من فنان يتحمل الواقع (10)" فإن مالك حداد مؤهل أن يعطينا نظرة أخيرة على محتوى التمرد . جاعلا من الكتابة سلاحه الوحيد لمقاومة الظلام السرمدى، وللتحاور مع العالم الخارجي، انطلاقا من عالمه الداخلي المبطن بالألم .

ففي قصيدته (الأغاني يجب أن تقتل الليل "I I)) يقول:

كنت تبحث عن الرائع النبيل

إذا، فلتصم أذنيك عني

إني أفضح سر الزهرة التي انتهت على الحجر.

أيها الشاعر السعيد الذي يستطيع أن يصمت.

إن الكلمة لتبدو فرضا علي الآن..

بلى .. إنه لفرض أن أتكلم..

ملايين من الذكريات تلج علي ..

بل .. أكثر من ملايين

إني أذفع عن عطر الأزهار الذي ينتظر مني أن أبدعه.

ولكني فريسة اليأس في طائرتي اللعينة.

ليس للحب حدود.

سيظل الحب أكبر وأغنى.. مهما أحبينا ..

إني أمضغ فكرتي كقطعة من الخشب

وحلمي ؟ .. يا للمقبرة الضخمة ترافق الليل!

يجب أن نقتل الليل ..

يجب أن نقله..

لتبتثق الحياة من ورائه ..

إن مالك حداد يعيش هذه الشائبة الضدية بين الليل والنهار ، في سياق هذا الفعل التوازني بين الشائبات الضدية على مستوى الدلالة، يظهر الاشتغال الصوري على نحو ملفت في ابتكار صور جديدة، وتأثيرها بأنساق لغوية قادرة على الاتساق مع القصيدة .

وبين رغبة الانتصار الفردي وملاحم الواقع تأخذ الأنا موقعها متوترة بين ما تحياه، وما تأمل الوصول إليه .ضمن بنية مركزها: الأنا، وعلاقتها الأساسية: التقابل بين رغبة الانتصار (النهار) والواقع النقيض(الليل).

هذا الكاتب الذي يبشر شعبه بعد أن تتبدد عتبات الليل ضمن علاقة تواصل وانفصام في قصيدته (سأعطيك النهار الجميل) حيث يقول :

عندي للشمس صباح يروقهـا

سأعطيك النهار الجميل

إني أسأل الموجة أن لا تغرق

علها تنقل إلى وطني

حبي العظيم...

إني أستخدم كلمات تخرج من أفواه غريبة.

إني يتيم القبل ..

أحس هذا اليتيم كلما لاح موطن الفجر بعيدا عن عيني.

ما أقسى أن يكون الإنسان يتيم القبل !

وفي قصيدته (المسير الطويل) يبتكر الأنساق المغايرة التي تكمن في فتح أفق

لغة الشعر على لغة الراهن وبث الحياة ، إنه يعلم أنه صوت الإنسان المقهور الذي لن

يتنازل عن التفاؤل الإنساني رغم كل الجراح والآلام والمعاناة. يقول:

أنا الكلمة الأخيرة في القصة الضخمة التي ابتدأت لن ننسى شيئا مما مر .. لن نبدأ

من الصفر.

إني أحتفظ بأشودتي نقية في عيني ..

ومن ثم .. أتابع المسير، دون أن أنكر شيئاً من ماضي.

أنا الكلمة الأخيرة في القصة الضخمة التي بدأت..

ما عسانا نفيد من التمييز بين السماء والأفق؟

عسير أن نفصل بين الموسيقى والراقصين.

إن (البرنوس) الذي ارتداه أجدادي

(البرنوس) الذي يتراءى أمامي في كل مكان..

ما يزال دثاري

ما يزال استمرار الحياة في داري.

أنا الكلمة الأخيرة في القصة الضخمة التي ابتدأت.

إن الوعي المبكر الذي شحن تجربة مالك حداد الإبداعية بطاقة وطنية، تدين

الاحتلالالفرنسي، وتعلن الوفاء لأرض الأجداد، على عكس بعض الكتاب

الجزائريين بالفرنسية، الذين كان ولاؤهم للغة(الفرنسية) مع ضمور الأنا وانفلات

الذات من قبضة الحقيقة.

يقول في قصيدة (أنا في الحقيقة المعلم .. وأنا التلميذ):

لكلمة "وطن" عندنا طعم الأساطير.

لقد داعبت يدي قلب أشجار الزيتون.

إن مقبض الفأس هو منطلق ملحمتنا.

لقد رأيت جدي الذي يحمل اسم "المقراني"

يلقي "مسيحته" جانبا ليتابع بنظراته انطلاق النسور.

لكلمة "وطن" عندنا طعم الغضب.

يمضون في الأسطورة

هاهم يمضون في الأسطورة/والأسطورة تفتح لهم ذراعيها.

يظل مالك حداد رمزا للشاعر الذي لم يختر قدره، لكنّه اختار أن ينازله

حتىالنهاية. يبحث عن الحرية وعن صيرورتها الوجدانية في وعيه بمنطق أن الحرية

هي التي تتجب العظماء ،وإذا كان الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر Martin

Heidgger (1889- 1976) قد جعل اللغة بيتا للوجود ، فإن قلب الشاعر هو

بيت للوجود واللغة معا ، بهذا المعنى يكتب في نص بعنوان (وتمتت الزهرة) :

... وتمتت الزهرة: إني أشعر بالضيق

أعيدوا إلي مروجي

إنها زهرة الحرية.

أنا أشعر بالضجر من البيانو

قال العندليب

أعيدوا إلي غابتي ..

فهي الموسيقى كلها.

إني أشعر بالضيق، قالت الكلمة : أحبك.

إني أتململ ضجرا على الورق.

أعيدوا إلي القبلات .. فهي رسائلي.

إني أكاد اختنق .. قالت الصورة.

ردوا إلي البسمة التي كانت تشرق بها عيناى.

إني أتألم ..

أتألم أن أكون مرآة..

قالت لي الصورة الحية.

أصبحت الكتابة عند مالك حداد عبارة عن تمجيد للحرية، وإعلاء للحياة

واحتراف بالشعب؛ باعتباره حامل جذوة القوة المقدسة التي ستهدم عالم الطفلة

والمستبدّين، وتنتار للكرامة البشرية المنتهكة ، هذا التحرر المطلوب يمر حتما و

بالضرورة عن طريق الخطاب الأيديولوجي، و الأدبي المضاد. ففي قصيدته (وقوفاً أيها

الرفاق) يقول:

وقوفاً أيها الرفاق / فالجبل على صواب / إنه الحل الوحيد .. / أصغوا إلى خطوات الموتى

الثقيلة .. / ماذا تسمى أيها الشبح؟ / - إني أسمى جثة

لقد كنت واحدا من هؤلاء الأحياء .. وكانت لي بناتي.

لقد شربت الحليب / والماء / كما شربت الوهم ..

وقوفا أيها الرفاق /فالجبل على صواب.

ولاح لي حطام قلبي ، وحطام القباب/في قرانا ..

وآليت أن أجدد بناءها في أنشودة أمل./إني اكتب عن موتانا.

لقد سمعتهم يقولون:/إن عويل المآثم هو أحيانا مهد الأغنيات.

مهد الموسيقى ذاتها !!

لقد حاول مالك حداد أن يصور العلاقة المعقدة والمتناقضة بين الجزائر وفرنسا، وأن يبرز الخطر الماحق الذي تعده فرنسا للجزائريين المضطهدين، وأن تكون كلماته نقطة تحول في الأدب الجزائري. لقد حان الوقت لطرح المسألة الوطنية في عمقها، و الحديث عن الهوية المختلفة للسكان المحليين بشكل جذري يقول في قصيدة (المخاض العظيم):

هذه السماء ليست إلا كفنا هنا/ولكنها في بلادي مشعل يتقد../إنها كيوم أحد

فقت عيناها/إنها كربيح منهوب أبدا/لم يمض يوم بلا مأساة/لقد ألفت

سيمفونيتي/من ألحان الشقاء ..

الشقاء نفسه يتألب علينا/وددت لو أعرف اسم الشقاء..

أيها التاريخ؟/إذا قدر لك أن تتطلق من أرضنا/فلأن الشمس قد اختارت مهدها ..

في الشرق/الشقاء نفسه يتألب ضدنا/وددت لو أعرف اسم الشقاء..

أخبروني عن القبة التي حرمت منها/قولوا لي شيئا عن هذه الصحراء/التي أستمد

منها أناشيدي

أخبروني عن غزالتي التي قتلوها ../وزهرتي التي حرموها من البستان

قولوا لي: ما الذي يبرر كل هذه الآثام؟/ما الذي يبرر مائة ألف حماقة؟..

مائة ألف جريمة؟.../أخبروني قبل كل شيء.../كيف حال الجزائر؟؟!!

خاتمة

كان شعور مالك حداد بالمأساة مبكرا، وقد عبّر عن ذلك الألم في دمشق في محاضرة له باللغة الفرنسية عن الثورة الجزائرية، وهي في عنفوانها: "تتجلى مأساتي الآن بشكل أعمق ... أنا أقف أمامكم، لا أعرف كيف نتفاهم ! "وقد ختم قصائده بأن المهمة منجزة.

إن الإبداع عند مالك حداد ولد من رحم الأحداث العصبية التي مرت بها الجزائر، وعبر بصدق عن تلك المرحلة، وأثبت تنامي الحس الوطني والقومي الذي أجمته فيما بعد طموحات الثورة التحريرية. وأدرك أن قضية الهوية قضية محورية، وأن من لم ينتبه إليها سيذوب حتماً في ثقافة غيره، وستتلاشى مميزاته الخاصة ليكون ذيلاً أو تابعا، وسيجرد بعدها من قيم المقاومة والصمود. "ولذلك أعطى كل شيء حقه. فالتاريخ، والفلسفة والمشكلات الفكرية المختلفة التي لم تنته الإنسانية بعد من حلها، والشعر كل ذلك كان من أولوياته" (11).

لقد كان يعي جيدا رسالته والمسؤولية الملقاة على عاتقه، فلم يكن أمامه سوى الالتزام بضرورة التعبير عن مأساة مجتمع متأزم يعاني من هيمنة الخطاب الكولونيالي، وشراسة أدواته القمعية، وكان الوطن عنده جنة، رغم احتراق حبره الفرنسي، وصمته الأبدي تبقى صرخته الأبدية نكاية في المستعمر الذي سلبه اللسان لكن لم يسلبه الروح.

الهوامش

1. Cheurifi Achour. Écrivains Algériens. Dictionnaire biographique .Alger.Casbah.2009.
2. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1969 ، ص: 406.
3. محمد صالح الجابري : الأدب الجزائري المعاصر ، دار الجيل ، بيروت ، ط01 ، 2005 ، ص: 11.
4. عبد الله ركيبي: الفرانكوفونية مشرقا ومغربا، دار الأمة، الجزائر، 1999، ص:277.
5. أحمد منور: "من هو الكاتب الجزائري وهوية الأدب الذي يكتبه؟" مجلة الثقافة ، الجزائر، العدد المزدوج، 9/8، 2006، ص122.
6. أنظر، مالك حداد، شعرية القص ورمزية النص: <http://ar.wikipedia.org/>
7. أحمد منور: "من هو الكاتب الجزائري وهوية الأدب الذي يكتبه؟" ، ص120.
8. اعتدال عثمان: إضاءة النص(قراءات في الشعر العربي الحديث)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر، ط02، 1998، ص54.
9. نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية ، مكتبة لبنان ناشرون و الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، ط1، 2003، ص555.
10. أنظر الترجمة :ملك أبيض العيسى على موقع : <http://www.jehat.com/>
11. ألبير كامو: الإنسان المتمرد، ترجمة : نهاد رضا، منشورات دار عويدات ، بيروت /باريس ، ط03، 1983، ص314.
12. العربي دحو: دراسات وبحوث في الأدب الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1991، ص71.